ابن سينا كرائد لرباعيّات الخيّام *

د. محمد يحيى الهاشمي **

تُنسب إلى الشيخ الرئيس ابن سينا أشعار عديدة باللغة العربيّة ذُكرت في عيون الأنباء في طبقات الأطباء [1] ومنها قصيدته المشهورة في النفس:

هَبَطَتْ إِلَيْكَ مِنَ المكانِ الأَرْفَعِ ... وَرْقَاءُ ذَاتُ تَـعَزُّزٍ وَتَمَنُّـعِ

وكذلك قصيدة تهذيب النفس:

هذِّبِ النفسَ بالعلوم لترقـى ... وذرِ الكلَّ فهي للكلّ بيتُ

إنّما النفس كالزجاجة والعلم ... سـراجُ وحكمـة الله زيتُ

فإذا أشرقَت فإنّك حيّ ... وإذا أظلمَت فإنّك ميـتُ

وله أيضًا في الخمريات:

صـهباء في الكأس صـرفًا ... غلبت ضـوء السـراج

ظنّـها فـي الكأس نـارًا ... فطفـاها بالمـزاج

قم فاسقنيـها قهوة كوم الطلا ... يا صاح بالقدح الملا بين الملا

خمرًا تظل لها النصارى سجدًا ... ولها بنو عمـران اخلصت الولا

---

* نُشرت هذه المقالة لأوّل مرّة في مجلّة الدراسات الأدبيّة، السنة الخامسة، العددان الثالث والرابع، خريف ١٩٦٣ وشتاء ١٩٦٤م، ص٣١٧-٣٣٢، لذلك نشرناها كما نُشرت أوّل مرّة.

** دكتوراه في الفلسفة من ألمانيا في العام ١٩٣٥. كان رئيس جمعية الأبحاث العلمية في حلب ومدرّسًا في كلية الآداب بسوريا.

١. عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ابن أبي أصيبعة، القاهرة ١٨٨٢م، ص٤، ١٠، ١٥.

إلى أن يقول:

نزل اللاهوت في ناســـوتها كنزول الشمس في أبـــراج يـــوح
قال فيها بعضُ من هامَ بها مثل ما قال النصارى في المسيح
هي والكأس وما مازجـــها كأب متحـــــد وابـــــن وروح

ولكن مع ذلك يقول عنها:

هي الصهباء مخبرها عدو وان كانت تناغي عن صـــــديق

وغير ذلك من الأشعار.

تُنسب كذلك إلى هذا العالم والحكيم أشعارٌ فارسيّة؛ فقد كان المستشرق كريستيان رينهولـد رمبيـس Christian Herrn Hold Rempis قـد نشـر موضوعًـا في العـدد الخامس من الدراسـات الشـرقيّة بمناسـبة مرور سـتين عامًا علـى ولادة المرحوم إنـوليتمان[1]، نرى مـن الضـروري ترجمـة الفصـول المهمّـة منه مـع الملاحظـات الجديـدة والتصحيحات المهمّـة؛ ويذكر هذا المستشـرق أنّه جـاء في كتاب صوان الحكمة لظهير الدين الحسـن البيهقـي أنّ عمـر الخيّـام كان أحـد مريـدي أبي علـي (والمقصـود بأبي علي: ابن سـينا) فـي الفـروع الوحيـدة مـن الفلسـفة، وبهـذا يُعـدُّ خلفًـا لهـذا العالم الفـذّ. ولقـد وجدنا في كتـاب تاريـخ حكمـاء الإسـلام لظهيـر الديـن البيهقـيّ ترجمـة لعمـر الخيـام، وأنّـه كان يسـتفيد من أبي الحسـن الأنباري الحكيم، وكان يتأمّل قسـم الإلهيات من الشـفاء، وأنّه تقابـلَ مـع الغزالي حجّة الإسـلام وذلـك في تعيين أجـزاء الفلـك القطبيّة[2].

من الطريف في هذا الباب أن نتبع هذه القضيّة لكي نعلم ما هي الأشـعار الفارسـيّة التي نظمها ابن سـينا، ولأيّ درجـة من الدرجات لها علاقة بالخيام.

بقـول رمبيـس: ليـس مـن الغريـب علـى ابـن سـينا أن ينظـم أشـعارًا بالفارسـية، لأنّـه كان لـكلّ زعيـم فكـريّ فـي ذلك الزمـن نزعة شـعريّة خاصّـة نجدها في كتـب التاريخ والأدب الفارسـيّة ككتـاب (لبـاب الألبـاب) للعوفي و (راحـة الصـدور) للراوندي وغير ذلك.

1. Orienttalische Studien , Enno Littmann Zu Seinem 60 Geburtstag , Leiden 1963, P. 149 etc

٢. تاريخ الحكماء للبيهقي، دمشق ١٩٤٦، ص ٢٧، ١٠٣ و١٠٤ و ١٢٣.

ويشكّ الباحثون في أن تكون الأشعار التي تواترت عن ابن سينا هي حقًا له أم أنّها وُضعت في تاريخ متأخر. ولقد نشر المستشرق هـ. اته H. Ethé مقالًا بعنوان «ابن سينا كشاعر غرام» أورد فيه اثنتي عشرة رباعيّة. ويذكر رمبيس أنّه لا يعرف تفسيرًا لتركه بعض الأشعار الموجودة في مخطوطات أكسفورد (اليوت Elioth ٢٩٢ من التي هي من عام ١٧٧٤ ب.م.) والتي جاء فيها:

يك يك هنرم بين، گنهم ده ده بخش

ومعناه: انظر الى محاسني فرادى، واغفر ذنوبي عشارى

ولكن كما يقول المستشرق المار الذكر، إذا نظرنا عامّة الى أقدم المصادر المنوّه عنها في مخطوطات أكسفورد، نجد الدلائل المتواترة على أصلية هذه الاشعار ضعيفة، وإنّ أقدم مصدر لها كما أشار «إته» Ette في الرقم الرابع هي «هفت اقليم»، (الأقاليم السبعة) وهو من العام ١٥٩٤م. وهناك أشعار أيضًا تعود إلى أزمنة متأخّرة عن ذلك، فإنّ الأشعار التي ذكرت تحت الأرقام ٢ و١٠ و١٢ تعود إلى العام ١٧٢٤م، والمصادر التي بعدها تعود إلى العام ١٧٤٨م، وإنّ الأبيات الخمسة والمرقّمة بالأرقام ٣ و٥ و٦ و٨ و٩ تعود إلى العام ١٧٧٤م.

إنّ بين ابن سينا والخيام جيل إنسانيّ كامل، لذلك فمن الجائز أن يقتبس الثاني عن الأوّل، ويكون من مريديه في عالم الفكر، ولكن الدلائل التي يدلي بها «إتّه»، بعيدة عن ذلك، حتى أنّ ما يأتي به من بعض أشعار الخيام وهي سبعة عشر بيتًا غير معروفة عنه، ومنها مدح علي، والتي تبين لنا أنّ كلا العبقريتَين أعني الخيام وابن سينا كانتا تعتنقان المذهب الشيعيّ.

إنّ هذه الأشعار التي لم تثبت بعد للخيام نفسه، يصعب إثباتها أيضا إلى سلفه ابن سينا، وإنّ ما سرده «إتّه»، تحت الرقم ١ ألا وهو:

مائيم بلطف حق تولا كرده

ومعناه: نحن الأُلى تولينا رحمة الحق.

فيُنسب منذ العام ١٤٧٢م إلى الخيام. وفي مخطوطة باريس[1] من القرن السادس

1. Bibliotheque Notional, Suppl. Press 793، “Les Mss. Minerurs...” p.31.

عشر أشعارٌ منسوبة إلى ابن سينا من الصعب إثباتها له بل هي بالأحرى للخيام.
ونجد في الرقم الثالث ممّا ينسب إلى ابن سينا ما يلي:

از قعر گل سیاه تا اوج زحل

ومعناه: من قعر الطين الأسود إلى أوج زحل

وينسب هذا إلى الخيام منذ العام ١٤٦٠م

وفي مجموعة «إتّه» أيضًا الرقم ٤ شعر ينسب إلى ابن سينا:

کفر چو منی گزاف و آسان نبود

ومعناه: كفر مثلي جزاف وليس بسهل

نسب أيضًا إلى الخيام في العام ١٤٩٢م.

وما جاء تحت الرقم ٦:

با این دو سه نادان که جهان می دانند

ومعناه: مع هذه القلّة من الجهلة الذين يعرفون العالم

نسب إلى كلّ من ابن سينا والخيام في عصور متأخرة

وكذلك ما جاء تحت الرقم ٧ (المنسوب إلى ابن سينا)

گر باده گهی خورم نشان خامیست

ومعناه: شربي الخمر حينًا دلالة على أني غير ناضج

نسبت ايضًا إلى الخيام (من عام ١٥٢٨-١٧٧٤). وفي مجموعة إتّه رقم ١٢ نجد أيضًا أنّ:

یك یك هنرم بین گنهم ده ده بخش

الذي مرّ معنا نسب أيضًا إلى ابن سينا، وبعد ٣١٤ عامًا نسب أيضًا إلى الخيام.

وما جاء في مجموعة إتّه تحت الرقمين ٥ و٦ شعران على الرغم من أنّهما مأثوران عن ابن سينا يجدهما المحقّقون للخيام، ولم يذكرا مقرونَين باسم ابن سينا قبل القرن الثامن عشر الميلادي.

كما أنّ هناك سبعة أبيات من المرجح أنّها من نظم ابن سينا.

إنّ أقدم مصدر جاءت فيه أشعار مرفوقة باسم أبي علي ابن سينا منذ العام ١٣٣١

ب.م هو- كما جاء في مقالة (المنتجات الأوليّة من عمر الخيام ١٩٣٥م)[١] والنصوص التي تليها تعود إلى العام ١٤٤٨ وهي موجودة على هامش مخطوطة في باريس[٢] فيها سبع رباعيات، هذه هي نصوصها:

-١-

اي در دو نفس عمر تو افزاينده باديست نفس شونده و آينده
برباد نهاده اى بناى همه عمر برباد كجا بود بنا پاينده

ومعناه:

يا من يزيد عمرك بنفسين إنّما النفس هواء، ذاهب وآت
أقمتَ بناءَ عمرك كلّه على هواء أنّى يثبت بناء على هواء

في مثل هذا المعنى نظم الخيام كثيرًا من الرباعيات.

-٢-

آن اتش اب تن كه روح ما نيست خونيست نه خونى، چه سبب زندانيست
آرى هم سالها بدرد ارزانيست تا مايه جان چرا بدين ارزانيست (كذا)

ومعناه:

إنّ هذا السائل الناري في الجسم ليس بروحنا وهذا الدم ليس هو سبب سجننا

وإذا لم يجلب العمر إلّا الهمّ والغمّ فما هو القصد من خميرة الروح[٣]

من الجائز نسبة هذه الرباعيّة إلى ابن سينا، فإنّ القصيدة المنسوبة إليه عن النفس:

هبطت إليك من المكان الأرفع ورقاء ذات تدلّل وتمنّع

إلى أن يقول:

فهبوطها إن كان ضربة لازم لتكون سامعة بما لم تسمع

فخميرة الروح هنا اكتساب الخبرة على الأرض لتسمو في الملكوت الأعلى.

1. The earliest selection from Umar khayam's Ruba'iyat, BSOS 1935, VIII.

2 Suppl. Press 1777, Bl. 326a.

٣. [في هذه الرباعية كما أوردها الكاتب غموض لم نتوصل إلى إجلائه، وقد امتد هذا الغموض إلى ترجمتها أيضًا - هذا تعليق محرّر الدراسات الأدبيّة في العام ١٩٦٤]

ويستعمل الشاعر التركيّ المعاصر نامق كمال الخميرة لاكتساب الخبرة الشريفة، فيقول مستعملًا ألفاظًا فارسيّة بتركيب تركي:

«مخمر در سراپا مايه مز خون شهادتدن»

أي: «إنّ دمنا متخمرّ الرأس إلى القدم بخميرة الشهادة».

هذه الخميرة يفسّرها جلال الدين الروميّ بالعشق وهكذا يقول في المثنوي[1]:

آتش عشق است كاندر ني فتاد — جوشش عشق است كاندر مي فتاد

وقد ترجمها عبد الوهاب عزام[2]

هي نار العشق في الناي تثور — وهي نار العشق في الخمر تفور

ونجد في نزهة المجالس (ص٧٩ و٨٢) ما معناه[3]:

إنّ مدة عمرك بين نفسين تمضي — شبيهة بالريح الذي هو في رحلة

لقد أسّست حياتك على الريح — فقل، هل لمثل هذا البناء من ثبات[4]

-٣-

اى ناطق اگر بمركز جسماني — حاصل نكني معرفت انساني

فردا كه علامت از ميان برخيزد — در ظلمت جهل جاوداني ماني

ومعناه:

أيّها الناطق إن كنت في هذا المركز الجسمي — لم تحصل على المعرفة الإنسانية

فغدًا عندما تنتفي العلامة — تبقى في ظلمة الجهل الأبدي!!

وفي رباعيات الخيام نفسها نجد:

دل سر حيات اگر كما هي دانست — در موت هم اسرار الهي دانست

١. خلاصة المثنوي، نگارش آقای بديع الزمان فروزانفر، تهران، ١٣٢١، ص١، س ١١.
٢. فصول من المثنوي، القاهرة: ١٩٤٦، ص ٢٢.
٣. م ١، ص ١٥٢، الشرح ١.
٤. النصّ الألماني:

Zwei Huchlein fassen deines Lebens First,
in der du gleich wind auf Reise bist;
du hast auf Wind des lebens Bau gergründet,
so sag. Ob solch ein Bau bestanding ist?

امروز كه با خودي ندانستي هيچ — فردا كه زخود روي چه خواهي دانست؟

ومعناه (بحسب ترجمة الصافي ٢٩٧):

سر الحياة لو أنّه يبدو لنا — لبدا لنا سر الممات المبهم

لم تعلن وأنت حي سرّها — فغدًا إذا ما متّ ماذا تعلم؟

-٤-

از اوج بلند مهر تا مركز خاك — افلاك پيمودم وهامون ومغاك

نفزود چو در وجود من يك خاشاك — دست از همه حيله ها فرو شستم پاك

ومعناه:

من أعلى السماء حتى مركز الأرض — طويت الأفلاك والقفار والظلمات

فلما لم يزدد وجودي بمقدار تبنة — غسلت يدي من كلّ حيلة ونفضتها

وفي رباعيات الخيام:

از جرم حضيض خاك تا اوج زحل — كردم همه مشكلات گردون را حل

بيرون جستم ز بند هر مكر و حيل — هر بند گشاده شد مگر بند اجل

وتعريبه (ترجمة الصافي ٢٨٥):

حلّ فكري في الكون كل معمّى — من حضيض الثرى لأوج النجوم

قد تبيّنت كلّ مكر وسر — فيه إلّا سرّ الردى المحتوم

-٥-

زين عمر كه نيست جز ملالي حاصل — بگذشت و نگشت جز وبالي حاصل

فكرم همه زانست كه مى بايد مرد — ناكرده درين جهان كمالي حاصل؟

ومعناه:

هذا العمر الذي لم تكن حصيلته سوى الملل — ذهب ولم يبق منه إلّا الوبال

إنّ همّي كلّه من أنّنا سنموت — قبل الحصول على الكمال في هذا العالم

بهذا المعنى تواتر عن الخيام أشعار كثيرة نورد منها:

اسرار ازل را نه تو دانى و نه من — واين حرف معمى نه تو خوانى و نه من

هست از پس پرده گفتگوی من و تو چون پرده برافتد نه تو مانی و نه من

وتعريبه (بحسب ترجمة الصافي ٢٢٣):

لا أنا عالـمٌ ولا أنت سـرَّال ـدهر أو حلّ مُشكلٍ منه دَقّا

نَتَظّنّى خلفَ الستارِ فإنْ زا لَ فلا أنتَ أو أنا ثم نَتْقـى

-٦-

اي نفس كه در بند هوا و هوسه بشتاب كه در حمايت يك نفسى

دنيا مطلب بجاه خود غره مباش كز دوست برآئى و بدشمن نرسى

ومعناه:

أيّتها النفس المقيّدة بالهوى والنزوات سارعي فإنما أنت رهينة نَفَـس

ازهدي بالدنيا ولا يغرّنك جاه لك اذ تخسرين الصديق ولا تكسبين العدو

بهذا المعنى نجد للخيام:

اين جمع اكابر كه مناصب دارند از غصه و غم ز جان خود بيزارند

وانكس كه اسير حرص چون ايشان نيست اين طرفه كه ادميش مي نشمارند

وتعريبه (حسب ترجمة الصافي ٣٣٤):

إنّ من أدركوا المناصب ذاقـوا جرع الهمّ والأسى ألوانا

وعجيب أنّ الذي ليس يهوى حرصهم لا يرونه إنسانا

لا شكّ أنّ هذا الزهد قديم في الشرق، وهو مطلب من مطالب البوذيّة، وفيه الابتعاد عن عطش الوجود وسكينة بحر النفس البعيدة عن الحبّ والبغض وجميع المهيّجات١.

يذكر المحقّق رمبيس بأنّه لا عجب من بعض الاختلافات، لأنّ النقَلة في العصور المتأخّرة أبدلوا الرباعيّات المنسوبة إلى الخيّام أو ابن سينا بعضها ببعض وخاصّة في ما يتعلّق بالسماء والأرض، فإنّ مثل هذه الأشعار المتواترة عن الخيّام قد نُسبت إيضًا إلى ابن سينا، من أجل ذلك كان المدقّقون في حيرة من أمرهم، لمن تكون

١. أقوال بوذا (باللغة الألمانيّة) Die Reden Gotamo Buddhos, ubersetzt von Karl Fugen Neumnn, Zurich - Wien ١٩٥٦، I. P. ٤٢.

مثل هذه الأشعار؟ أَلِلأوّل أم للثاني؟ ولكنّنا نعلم اليوم أنّ الخيّام كان من مريدي ابن سينا فهو معلّمه لأنّه درس كلمات ابن سينا بدقّة، ولكنّ الخيّام أعطى لتلك الافكار الكونيّة الفريدة معالمَ أكثر جدّة وسكبها بمهارة فائقة، وكانت أفكار الخيّام أشد تواترًا وانفعالًا، وأن الرباعيّة التي جاءت تحت الرقم ٦ من هذه المجموعة تظهر المغالطة بكلّ وضوح.

يوجد كذلك في مكتبة الآستانة بتاريخ ١٤٢٠ رباعيّات منسوبة إلى الخيّام ولكن على ما يظهر إنّ الناظم لهذه الأشعار هو ابن سينا، وما نسب إلى الخيام يعدُّ منتحلًا. وقد علم كلّ من اشتغل بتاريخ الأدب الفارسيّ أنّ كلا الاثنين يحملان الأفكار الكونيّة نفسها. وفي مخطوطة باريس بتاريخ ١٤٤٨ تعقب أبيات ابن سينا رباعيّات الخيام، أمّا مخطوطة الآستانة من القرن السادس عشر فيعقب رباعيّات الخيّام غزل ابن سينا.

من الأدلّة على نسبة بعض الأشعار إلى ابن سينا ما ذكره محمد علي فروغي في المقدّمة التي نشرها عن رباعيّات الخيّام في الفارسيّة ناقلًا عن الشيخ الرئيس الأبيات الآتية[١]:

كفر چو مني گزاف و آسان نبود — محكمتر از ايمان من ايمان نبود
در دهريكى چون من و آنهم كافر — پس در همه دهريك مسلمان نبود

ومعناه:

الكفر من مثلي جزاف وليس بسهل — ولا يوجد إيمان أقوى من إيماني
إذا كنت أنا وحيد دهري كافرًا — فليس في الدهر كلّه مسلم واحد

فمن يا ترى أخبر ابن سينا أنّه بعد وفاته سينبري له الغزالي ويتّهمه بالكفر والإلحاد كما اتهم باقي الفلاسفة في كتابه الشهير «تهافت الفلاسفة»[٢] و«المنقذ من الضلال»[٣]. ولا يبعد أن يكون مثل هذا الشعر إمّا منتحلًا عليه أو معبّرًا عنه وقائله غيره عن لسانه

١. رباعيات حكيم خيام نيشابورى، با مقدمه و حواشى، باهتمام محمد على فروغى و دكتر غنى، تهران ١٣٢١، ص٨.
٢. راجع تاريخ الفلسفة في الإسلام، ت، ج. دي بور، ترجمة أبو ريدة، القاهرة ١٩٢٨. ص ٢٠٠.
٣. المنقذ من الضلال، مكتب النشر العربي، دمشق ١٩٣٤، ص ٨٤.

كأنّه عاش في زمن الغزالي وردّ عليه، ولكن الذي ردّ على الغزالي كان ابن رشد في كتابه الشهير «تهافت التهافت».[1]

-٧-

ومن الأشعار المنسوبة أيضًا إلى ابن سينا:[2]

زان كوزه می که نیست در وي ضرری　　پر کن قدحي بخورد من ده دگری
زان بیشترای صنم که در ره گـــذری　　خاك من و تو کوزه کند کوزه‌گری

ومعناه:

من جرة الخمر تلك لا ضرر فيها　　املأ قدحًا آخر وناولينه
أيّها الصنم قبل أن يضع خزاف على　　قارعة طريق كوزًا من ترابي وترابك

فهي أقرب ما تكون إلى أفكار الخيّام منها كما بيّنّا إلى أفكار ابن سينا. وقد جاء في رباعيّات الخيّام:

از کارگه کوزه‌گری کردم رای　　دیدم که بپای چرخ استاد بپای
میکرد دلیر کوزه را دسته و نای　　از کله پادشاه و از دست گدای

وترجمته (تعريب الصافي ١٣٩):

مررت بعمل الخزاف يومًا　　وكان يجدّ في العمل الخطير
ويصنع للجرار عرى تراها　　يد الشـــــحاذ أو رأس الأمير

نعم ابن سينا كما تواتر عنه كان يشرب الخمر أحيانًا، ففي أثناء تقلّده وزارة شمس الدولة كان يدرس بالليل لعدم الفراغ بالنهار. فكان الطلبة يجتمعون في داره فيقرأون من الشفاء والقانون، فإذا فرغوا من القراءة حضر المغنون على اختلاف طبقاتهم وتهيّأ مجلس الشراب بآلاته، ولكنّه لم يُبِح المسكر ولم يهزأ بالشرع، فقد ورد عنه قوله المأثور المتقدّم: «شربي الخمر حينًا دلالة على أني غير ناضح». أمّا تعظيمه الشريعة فقد أورد عنه ابن أبي أصيبعة (ص ٣) ما يلي: «وكلّما كنت أتحيّر في مسألة ولم أكن أظفر بالحدّ الأوسط في قياس، تردّدت إلى الجامع وصلّيت وابتهلت إلى

١. مج. ٢. ص ٢٥٦ وما بعدها.
٢. رباعيات حكيم خيام نيشابوري، المصدر المتقدم، بند ١٧٣.

مبدع الكلّ، حتى فتح لي المنغلق وتيسّر المتعسّر، وكنت أرجع بالليل إلى داري، وأضع السراج بين يدي واشتغل بالقراءة والكتابة، فمهما غلبني النوم أو شعرت بضعف، عدلت إلى شرب قدح من الشراب ريثما تعود إليّ قوّتي...» ويقول عن الخمر[1]:

هي الصهباء مخبرها عدو وإن كانت تناغي عن صديق

أمّا الخيّام فكان يشرب الخمر عن عمد واستهتار ولا يأبه ظاهرًا بالشريعة، وفي الحقيقة والواقع لم يكن الخيّام مستهترًا بالشرع كما يُظَنّ، بل إنّه شعر بعذاب الوجود كما شعر بوذا الهنديّ من قبله، بل كما يشعر كلّ من كان عميقًا بالشعور، فأراد نسيان هذا العذاب الأليم برهة على الأرض إذ يقول:

مي خوردن من نه از برای طرب است نز بهر نشاط و ترك دين و ادب است
خواهم كه به بی خودي برآرم نفسی مي خوردن و مست بودنم زين سبب است

وتعريبه (بحسب الصافي ٣١):

لم أشرب الراح لأجل الطرب أو أترك الدين وأطرح الأدب
رمت الحياة دون عقل لحظة فهمت بالسكر لهذا السبب

أما عن الغفران فنجد:

ناكرده گناه در جهان كيست بگو وآن كس كه گنه نكرد چون زيست بگو
من بد كنم و تو بد مكافات دهی پس فرق ميان من و تو چيست بگو؟

وتعريبه (بحسب الصافي ١٩):

إلهي قل لي من خلا من خطيئة وكيف ترى عاش البريء من الذنب
إذا كنت تجزي الذنب مني بمثله فما الفرق ما بيني وبينك يا ربي

وفي محل آخر يقول:

اي رب تو كريمی و كريمی كرمست عاصی زچه رو برون زباغ ارمست
يا طاعتم اگر ببخشی آن نيست كرم يا معصيتم اگر ببخشی كرم است

وتعريبه (بحسب الصافي ٩٢):

١. عيون الأنباء، ص ٢٥.

يا رب إنّك ذو لطف وذو كـــرم ففيم لا يدخلنّ المذنب الخلـــدا
ما الجود إعطاء دار الخلد متقيًا إنّ العطاء لأصحاب الذنوب ندى

وكذلك:

گر من گنه روی زمین کردستم عفو تو امید است که گیرد دستم
گفتی که بروز عجز دستت گیرم عاجزتر از این مخواه که اکنون هستم

التعريب (حسب الصافي ٣٤٣):

لو ارتكبت خطايا الناس كلّهم لكنت أرجو لذنبي منك غفرانًا
قد قلت إنّك يوم العجز تنصرني لا عجز أعظم لي من عجزي الآنا

إنّ تقيَّ القلب يكاد يكون مثاليًا عند الخيام، وهو بالحقيقة صوفي عميق الإيمان؛ وإذا أردنا أن نبحث هذه الناحية من حياته الفكريّة فيجب أن نفرد دراسة خاصة. وفي هذه الصوفيّة العميقة تلتقي العبقريتان أيضًا، لأنّ لابن سينا نزعة صوفيّة لا في فلسفته فحسب، بل في ما ترك لنا من أشعار عربيّة وفارسيّة، وبهذا يكون ابن سينا سابقًا للخيّام في هذا المضمار. وفي الواقع لا يمكننا عدّ الخيّام غير مبتكر في شعره وإن ثبتَ اقتباسه عن ابن سينا، لأنّ عمق الخيّام في رباعيّاته وانسجام أشعاره يدلّان على أنّها ليست نزوة وقتيّة كما نشاهد عند ابن سينا، بل هي فنّ عميق متأصّل في ذاته، فليس المهمّ في ما يقتبسه الإنسان من غيره، بل في ما يصنعه ويطوّره، فالشعر عرضيّ عند ابن سينا، بينما هو أصيل عند الخيّام.

أمّا في التحرّي العلميّ فنجد أنّ ابن سينا كان فيلسوفًا وعالمًا طبيعيًا وطبيبًا فذًّا وكان الخيّام بجانب كونه شاعرًا ملهمًا رياضيًّا من الدرجة الممتازة، فإنّ مقاله عن الجبر والمقابلة يُعدّ فريدًا من نوعه، كذلك الأمر في معلوماته الفيزيائيّة، بجانب كلّ ذلك فقد ترك لنا ديوانًا فذًّا تُرجم إلى معظم اللغات الحيّة وهزّ به العالم، لأصالته وجرأته وحريّته وعمق إيمانه في آن واحد[1]. ولعلّه لا يوجد كتاب أدبيّ في العالم زاحمَ رباعيّات الخيّام في تأثيره وسعة رواجه، فإذا كان هناك تطابق بين العبقريتَين

١. يشير ماكس هورتن في كتابه عن فلسفة الإسلام إلى أنّ عمر الخيّام كان عميق الإيمان بل صوفيًّا. راجع:
Die philosophie des Islm, von Max Horten, Muenchen 1924, P. 65, 190, 249, A. 31, A. 240.

المذكورتَين في بعض الأشعار، فذلك التطابق عرضيّ وليس بأصليّ، ولا شكّ في أنّ عمق الشعور في رباعيّات الخيّام[1] متأتّ من ذلك التفكير الرياضيّ المحكم. وتدلّنا مقالة الخيّام عن الجبر والمقابلة على أنّه اقتبس من غير ابن سينا:

«ولمّا منّ الله تعالى عليّ بالانقطاع إلى جانب سيّدنا الأجلّ الأوحد قاضي القضاة الإمام السعيد أبي طاهر أدام الله علاءه وكبت حسدته وأعداءه بعد اليأس من مشاهدة كامل مثله في كلّ فضيلة عمليّة ونظريّة، وجمع بين انفاذ في العلوم وتثبت في الأعمال وطلب الخير لكلّ واحد من ذوي جنسه، فانشرح بمشاهدته صدري وارتفع بمصاحبته ذكري وعظم بالاقتباس من أنواره أمري واشتدّ بآلائه ونعمه أزري، فلم أجد بدًّا من أن أنحو نحو تلافي ما فوتنيه ريبُ الزمان من تلخيص ما أتحقّقه من لباب المعاني الحكيمة تقرّبًا الى مجلسه الرفيع، وابتدأت بتعديد هذه الأصناف من المقدّمات الجبريّة، راجيًا منه أن يوفّقني لاتباع هذا بتحقيق ما انتهى إليه بحثي وبحث من تقدّمني من العلوم التي هي همّي أهم من غيرها، متمسّكًا بالعروة الوثقى من عصمته إنّه أولى بالإجابة وعليه التكلان في كلّ حال».

من هذه العبارات نستنتج أنّه اقتبس عن غير ابن سينا، وأنّ همّه الأصيل كان في العلوم لا في الأدب والشعر، وهو في الوقت نفسه لا يقلّد تقليدًا أعمى بل يقوم هو بذاته بالخبرة الشخصيّة والتحقيق، وكما كان شأنه في العلوم الرياضيّة التي هي أشدّ أصالة في نفسه من الشعر والأدب، كذلك كان الأمر في إبداعه الأدبيّ ونجده أيضًا في المقال نفسه يقول (ص ٩٥):

«وما يمكن أن يبرهن عليه بخواص الدائرة أعني بكتاب إقليدس من الأصول والمعطيات يبرهن عليه ويبالغ من التسهيل، وما لا يمكن إلّا بخواص القطوع المخروطيّة فيبرهن عليه بما في المقالتَين من المخروطات. وأمّا البرهان على هذه الأصناف إذا كان موضوع المسألة عددًا مطلقًا فلا يمكننا ولا لواحدٍ من أصحاب الصناعة، ولعلّ من يأتي بعدنا يعرفه».

هنا نرى استقلال الشخصيّة في البحث والتحرّي وترك الباب مفتوحًا على

١. غلامحسين مصاحب، جبر ومقابلة خيام، بانضمام تاريخ علوم رياضى، تهران، ١٣١٧، ص٧.

مصراعيه للكشف والإبداع والوصول إلى نتائج جديده لم يصل إليها زمنه، بل ينظر بعين الغيب ما يمكن أن يكون في المستقبل.

سأشير من هذا الصدد إلى ناحية جديدة في الخيّام، فهو لم يكتف في عالم الفيزياء بتعيين الوزن النوعيّ في المعادن فحسب، بل قام أيضًا بتعيين الوزن النوعيّ في المعادن الموجودة في السبائك كسبيكة معمولة من الفضّة والذهب، فلم يكتف بتعيين وزنها النوعيّ، بل خاض غمار تعيين كلّ معدن على حِدة بطرق الحسابات الرياضيّة. اذًا لم يهمّه فقط ما أتى به أرشميدس، يوم صرخ صرخته التاريخيّة المشهورة «اريكا، اريكا..» (وجدتها، وجدتها...) حين طلب منه ملك سيراكوز في جزيرة صقليا معرفة ما إذا كان التاج المصنوع له من ذهب خالص أم هو مخلوط بمعدن آخر، وبطريق المصادفة عرف وهو في الحمّام الطريق الى ذلك. ويذهب الخيام إلى إبعد من هذا الحدّ بمعرفة الوزن النوعيّ للمعادن المختلفة في السبيكة، ولا يوجد عندنا في المخطوطات القديمة على ما يظهر موضوع يبحث في مثل هذه التعينيات إلّا الخازن بصورة عامّة ومنصور النيرزي، ولكن من هو يا ترى منصور النيرزي؟ إنّنا لا نعلم عنه شيئًا، وحتى لو فرضنا أنّ الخيّام اقتبس عن منصور النيرزي، فمنصور قام في حساباته بتعيين الوزن النوعيّ في سبيكة من النحاس والرصاص، والخيّام في حساباته قام بتعيين الوزن النوعيّ لسبيكة من الذهب والفضة، حتى إنّ مترجم كلا المخطوطتَين من العربيّة والألمانيّة يقول إنّ طريقه منصور قد وجدها عند البيرونيّ، وليس عندنا أيّ دليل على اقتباس طريقة الخيّام من مصدر على الرغم من أسبقيّة الخازن ووجود الجذر اليونانيّ في ذلك.[1]

لم يتسنّ لأحدٍ دراسة الخيّام من جميع نواحيه وإظهار شخصيّته الفذّة من الناحيتين العلميّة والأدبيّة، لأنّه مهما كانت هاتان الناحيتان مختلفتَين، فهما ينبعان من شخصيّة واحدة ولها اتجاه واحد ونزعة مشتركة في الاقتباس والإبداع. ومهما كان الخيام مقتبسًا عن غيره فهو ولا شكّ شخصيّة مستقلّة، سواء من الناحية

١. راجع غلامحسين مصاحب، جبر ومقابله خيام، المصدر المتقدم ص ٢٠٢. راجع أيضًا:
E. Wiedemann, Beitrage zur Geschichte der Naturwissenschaften VIII. Ueber Bestimmung der spezifischen Gewichte Erlangen ,١٩٠٦ P. ١٧٠ , ١٦٦.

العلميّة أو الناحية الأدبية، فالاقتباس عنده كالفأس الذي يضرب فوق صخر لتفجير الينبوع، فالفأس ليس الذي فجر الماء من العدم، بل إنّ الماء كامن في هذه الأرض، وهذه الضربة بالفأس هي التي جعلته يتفجر ويتدفّق عاليًا ثم يهبط إلى الأرض فيحييها بعد موتها. وهكذا كانت عبقريّة الخيام، إذ لو كان تابعًا لابن سينا لوجدنا هذه التبعيّة أيضًا في الاتجاه، فالاتجاه مختلف عند الاثنين. وكذلك فهما مختلفان في النواحي الشعريّة أيضًا، فقد ذهب الخيام كما بيّنا إلى أبعد ممّا ذهب ابن سينا، لا في السبك الفنيّ فحسب، بل في التحرّر الفكريّ والانطلاق النفسيّ التامّ والجرأة النادرة. ولا شكّ في أنّ هذه الأمور يكتشفها كلّ من قرأ ديوانه بإمعان، وهذه هي التي سجّلته في سجل الخلود وجعلته يجتاز حدود الزمان والمكان، و كأنّه اليوم على الرغم من مضي القرون شاعر عصري يعيش معنا ويتحسّس بتحسّسات العصر، والغالب أنّه ستمضي قرون وتظلّ له مثل هذه المكانة الممتازة وإذا كان ابن سينا رائدَ الخيّام في رباعيّاته، فلعلّه رائده من حيث الفكرة فقط، لا من حيث العمق وأصالة التفكير..

وما دمنا قد بحثنا في فيزياء الخيّام، فلا بدّ بأن أن نذكر شيئًا عن تفكيره الكيميائيّ بالنسبة إلى عصره، إذ يقول في رباعيّاته:

مي خور كه زتو قلت و كثرت ببرد — وانديشه هفتاد و دو ملت ببرد
پرهيزمكن ز كيميائى كه از او — يك قطره خوري هزار علت ببرد

وتعريبه (حسب ترجمة الصافي ٥٣):

احس الطلا عنك يزل هم الورى — وقلّة الأمور أو كثرتها
ولا تجانب كيمياء قهوة — تزيل ألف علة قطرتها

في هذا الاتجاه لا يمكننا معرفة الاتفاق والاختلاف مع ابن سينا، فالخيّام هنا ماجن وليس بجديّ، وابن سينا في كتاب الشفاء يذكر ما يلي[١]:

١. راجع مقالي عن الكيمياء في مجلة الكتاب، الجزء الخاص عن ابن سينا، القاهرة ١٩٥٢، وقسم المعدنيات من كتاب الشفاء:

E D. Holmyard and D.C. Mandeville Avicenna de Cong tione et Congletinatione Lapidum , Paris 1925, P.71-74.

«واما ما يدّعيه أصحاب الكيمياء فيجب أن يعلم أنّه ليس في أيديهم أن يقلبوا الأنواع قلبًا حقيقيًّا، ولكن في أيديهم تشبيهات حسنة، حتى يصبغوا الأحمر صبغًا أبيض شديد الشبه بالفضّة، ويصبغوه صبغًا اصفر شديد الشبه بالذهب أو النحاس.. إلّا أنّ جواهرها تكون محفوظة، وإنّما يغلب عليها كيفيّات مستفادة بحيث يغلط في أمرها..»

إنّ مثل هذا النص كان من جملة العوامل في كشفي للكيمياء القديمة، ألا وهي «التبادل الإيوني»، Ion Exchange، ذلك الموضوع الذي ألقيته عام ١٩٦٢ بصفة محاضرة في المؤتمر الدوليّ العاشر لتاريخ العلوم في كلٍّ من جامعة كورنل - نيويورك وفيلادلفيا من الولايات المتحدة.

كان كلّ من الخيّام وابن سينا على علم بمطلب الكيمياء القديم، ولا يوجد اي دليل على اقتباس الأوّل من الثاني.

من الغريب أيضًا أنّ كلا العبقريتَين اشتغلتا في المراصد الفلكيّة، فالخيّام اشترك في المراصد الفلكيّة التي أُقيمت في عهد الملك السلجوقيّ جلال الدين ملكشاه، ولعلّ ذلك كان في نيسابور أو إصفهان، كما اشترك في عمل التقويم الجلالي وذلك في العام ٤٦٧هـ(١٠٧٤ - ١٠٧٥م). واشترك ابن سينا في المراصد التي اقمها علاء الدولة في همدان (١٠٢٣ - ١٠٢٤م)[١] ولم يُعرف عن كليهما أيّ ميل للتنجيم، والمخطوطات المنسوبة إلى ابن سينا في هذا الموضوع منتحلة عليه.

لا شكّ في أنّ تطابق أشعارها في وصف الكون والسماء ناجم عن اطّلاعهما على الكون في عظمته واتساعه حسب ما تسمح به ظروفهما، ولا يمكننا أن نعدّ ابن سينا شاعرًا من الدرجة الأولى، بل إنّ الفن والشعر أمر ثانويّ بالنسبة إليه، حتى إن أشعاره في النصائح الصحيّة هي أقرب للنثر المقفّى الموزون الذي لا يعبّر عن الشعور العميق، وليس في أشعاره وحدة منسجمة، في حين نجد الخيّام مستقلًّا في شخصيته الفنيّة، ولرباعيّاته وحدة منسجمة فيها كلّ الفنّ والروعة والإبداع.

١. غلامحسين مصاحب، جبرو مقابله خيام، المصدر المتقدم، ص ١٩٩.
The observatory in Islam, by Aydin Sayili, Ankara 1960, P. 172